

التسامح في الديانات الوثنية: دراسة في الأسباب من منظور علماء مقارنة الأديان

Tolerance in Pagan Religions: A Study of Its Causes from the Perspective of Comparative Religion Scholars

د. بدر حامد الحربي، وزارة التعليم (المملكة العربية السعودية)

تاريخ الاستلام: 2026/04/03 تاريخ القبول: 2026/05/04 تاريخ النشر: 2026/05/31

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم التسامح في حقل مقارنة الأديان، وبيان الفرق بين دلالاته في التصور الإسلامي ودلالاته في الأدبيات الغربية، مع تحليل أسباب ما يُوصف بتسامح الديانات متعددة الآلهة، وتتبع نشأة هذه الفكرة وتطورها في الدراسات الحديثة. واعتمد البحث المنهج التحليلي المقارن، من خلال تحليل المفاهيم، واستقراء الأدبيات الغربية والعربية في مقارنة الأديان، ومناقشة الشواهد التاريخية والفكرية المتعلقة بالديانات الوثنية والتوحيدية. وتوصل البحث إلى أن وصف الديانات الوثنية بالتسامح لا يرجع إلى سبب واحد، بل إلى مجموعة عوامل متداخلة؛ أهمها: المرونة العقائدية، وغياب النزعة التبشيرية المسيطرة، والتشارك في المعتقدات الكبرى، وإمكان الترجمة والاندماج الثقافي واللغوي، والعوامل السياسية والجغرافية. كما خلص إلى أن العامل الأعمق والأكثر تأثيراً هو القابلية الداخلية في بنية الدين متعدد الآلهة لاستيعاب الآلهة والمعتقدات الجديدة، بينما تمثل بقية الأسباب عوامل مساعدة ومحفزة. ويوصي البحث بضرورة تحرير مفهوم التسامح عند دراسة الأديان، وعدم إسقاط المفهوم الغربي على التصور الإسلامي، مع التوسع في الدراسات المقارنة النقدية التي تميز بين التسامح بوصفه تعايشاً وبين التسامح بوصفه قبولاً عقدياً.

كلمات مفتاحية: التسامح؛ الديانات الوثنية؛ تعدد الآلهة؛ مقارنة الأديان؛ المرونة العقائدية.

Abstract:

This study aims to clarify the concept of tolerance within the field of comparative religion, and to highlight the differences between its meaning in the Islamic perspective and its meaning in Western literature. It also analyzes the reasons behind what is described as the “tolerance” of polytheistic religions, tracing the origins and development of this idea in modern studies.

The research adopts a comparative analytical method by examining concepts, surveying Western and Arabic literature in comparative religion, and discussing historical and intellectual evidence related to both polytheistic and monotheistic religions.

The study concludes that describing polytheistic religions as tolerant is not due to a single factor, but rather to a set of overlapping elements. The most important of these include: doctrinal flexibility, the absence of a dominant missionary drive, shared major beliefs, the possibility of translation and cultural and linguistic integration, as well as political and geographical factors. It also finds that the deepest and most influential factor is the internal

capacity within the structure of polytheistic religion to absorb new gods and beliefs, while the other factors act as supportive and motivating elements.

The study recommends the need to precisely define the concept of tolerance when studying religions, and to avoid projecting the Western concept onto the Islamic perspective. It also calls for expanding critical comparative studies that distinguish between tolerance as coexistence and tolerance as doctrinal acceptance.

Keywords:

Tolerance; Polytheistic Religions; Polytheism; Comparative Religion; Doctrinal Flexibility

مقدمة:

يُعدّ مفهوم التسامح من أكثر المفاهيم تداولاً في الدراسات المعاصرة في حقل مقارنة الأديان، حيث ارتبط ظهوره الحديث بتحوّلات فكرية عميقة شهدها الغرب منذ القرن السابع عشر الميلادي، في سياق السعي إلى معالجة الصراعات الدينية وإعادة تنظيم العلاقة بين الدين والمجتمع. وقد تطور هذا المفهوم ليأخذ دلالات متعددة، تراوحت بين مجرد التعايش مع الآخر، وبين القبول العقدي بمعتقداته، بل والإقرار بإمكان تعدد الحقائق الدينية.

وفي سياق هذه التحوّلات، برز اتجاه في الدراسات الغربية يقضي بوصف الديانات متعددة الآلهة (الوثنية) بأنها أكثر تسامحاً وانفتاحاً تجاه المعتقدات الأخرى، استناداً إلى ما يُلاحظ من قابليتها لاستيعاب آلهة الشعوب المختلفة ودمجها ضمن منظوماتها العقدية. وفي المقابل، صُوّرت الأديان التوحيدية بوصفها أقل تسامحاً، نظراً لارتكازها على مبدأ حصريّة الإله، وما يستتبعه من نفي شرعية الآلهة الأخرى.

وقد وجدت هذه الرؤية طريقها إلى عدد من الدراسات المعاصرة في مقارنة الأديان، سواء في الكتابات الغربية أو في بعض الدراسات العربية المتأثرة بها، مما أدى إلى شيوع هذا التصور بوصفه حكماً عامّاً على طبيعة الأديان. غير أن هذا الطرح يثير جملة من الإشكالات المنهجية والمعرفية، خاصة فيما يتعلق بمفهوم التسامح ذاته، وبمدى صلاحيته للتطبيق على مختلف الأديان دون تمييز بين أطرها العقدية والسياقات التاريخية التي نشأت فيها.

ومن هنا، تأتي هذه الدراسة لتتناول مفهوم التسامح في حقل مقارنة الأديان، مع التركيز على تحليل الأسباب التي يُعزى إليها ما يوصف بتسامح الديانات الوثنية، وتتبع نشأة هذه الفكرة وتطورها، وتقويم الأسس التي قامت عليها، في ضوء قراءة تحليلية مقارنة تراعي الفروق المفاهيمية بين التصور الإسلامي والأدبيات الغربية.

المشكلة البحثية والتساؤلات

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية مركزية تتمثل في شيوع القول في أدبيات مقارنة الأديان بأن الديانات الوثنية تنسم بالتسامح والانفتاح على المعتقدات الأخرى، في مقابل تصوير الأديان التوحيدية – ولا سيما الإسلام – بوصفها أقل تسامحاً بسبب طبيعتها العقدية القائمة على التوحيد والحصريّة الإلهية. وتكمن المشكلة في أن هذا التصور يعتمد غالباً على مفهوم غربي للتسامح يُسقط على مختلف الأديان دون تمييز، مما يؤدي إلى نتائج تفسيرية غير دقيقة.

1. ومن هنا تتفرع عن هذه الإشكالية التساؤلات الآتية:
2. ما المقصود بالتسامح في حقل مقارنة الأديان؟ وكيف يختلف عن مفهومه في التصور الإسلامي؟
3. متى نشأت فكرة "تسامح الأديان الوثنية" في الفكر الغربي؟ وكيف تطورت؟
4. ما الأسباب التي يذكرها علماء مقارنة الأديان لتفسير تسامح الديانات متعددة الآلهة؟
5. هل يرجع هذا التسامح إلى طبيعة عقدية داخلية في هذه الأديان، أم إلى عوامل تاريخية وسياسية واجتماعية؟
6. إلى أي مدى يصح وصف الديانات الوثنية بالتسامح بوصفه خاصية ذاتية مطلقة؟

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف العلمية، من أبرزها:

1. تحرير مفهوم التسامح في حقل مقارنة الأديان، وبيان الفروق الجوهرية بين دلالاته في التصور الإسلامي والأدبيات الغربية.
2. تتبع نشأة فكرة تسامح الديانات الوثنية وتطورها في الفكر الغربي الحديث والمعاصر.
3. تحليل الأسباب التي يُعزى إليها تسامح الأديان الوثنية في الدراسات المقارنة.
4. تقويم الاتجاهات التفسيرية المختلفة لهذه الظاهرة، وبيان حدودها العلمية.
5. الوصول إلى تفسير مركب يحدد العامل الأعظم في نشوء هذا التسامح، مع بيان دور العوامل الأخرى.

أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من عدة اعتبارات علمية ومنهجية، من أهمها:

1. تناوله لقضية مركزية في حقل مقارنة الأديان، وهي مفهوم التسامح وعلاقته بالبنية العقدية للأديان.
2. تصحيحه لجملة من التصورات الشائعة في الدراسات الغربية، التي تعمم الحكم بتسامح الديانات الوثنية دون تفكيك أسبابه.
3. إبراز الفارق المنهجي بين المفهوم الإسلامي للتسامح والمفهوم الغربي، مما يسهم في ترشيد الدراسات المقارنة.
4. تقديم تحليل نقدي يسهم في تطوير البحث في مقارنة الأديان، خاصة في موضوع العلاقة بين العقيدة والتسامح.
5. إسهامه في بناء رؤية علمية متوازنة تتجنب التعميمات، وتربط الظواهر الدينية بسيقاتها العقدية والتاريخية.

الدراسات السابقة

يمكن تصنيف الدراسات السابقة المتعلقة بموضوع البحث إلى اتجاهين رئيسين:

الاتجاه الأول: الدراسات الغربية في مقارنة الأديان

وتمثلها كتابات مفكرين وفلاسفة منذ القرن السابع عشر وما بعده، مثل: توماس هوبز، وجون لوك، وبير بايل، ثم فولتير، وهيوم، ومونتسكيو، وصولاً إلى دراسات معاصرة مثل أعمال يان أسمان، وكارن أرمسترونغ، وإستر إيدينوف، وجوليا كيندت، ولورا نيكولي.

وقد ركزت هذه الدراسات على إبراز التسامح بوصفه سمة متأصلة في الأديان الوثنية، وربطته غالباً بتعدد الآلهة والانفتاح العقدي.

الاتجاه الثاني: الدراسات العربية والمعاصرة في الأديان

ومنها أعمال بعض الباحثين العرب مثل: فراس السواح، وخزعل الماجدي، إضافة إلى الدراسات المعجمية والتاريخية في الأديان.

وقد تأثرت بعض هذه الدراسات بالمنهج الغربية، مع محاولة تفسير الظاهرة في سياقاتها الحضارية والتاريخية.

موضع البحث من الدراسات السابقة:

يتميز هذا البحث عن الدراسات السابقة في كونه لا يكتفي بعرض فكرة التسامح في الأديان الوثنية، بل يسعى إلى تحليلها تحليلًا نقديًا تفكيك أسبابها

التمييز بين العامل العقدي والعوامل الخارجية وعدم التسليم بالمفهوم الغربي للتسامح بوصفه معيارًا مطلقًا

خطة البحث

جاءت خطة البحث على النحو الآتي:

مقدمة:

تتضمن عرضًا عامًا لموضوع البحث، وإشكاليته، وأهميته، ومنهجه.

المبحث الأول: التعريفات وتحديد المفاهيم

وفيه:

- مفهوم التسامح
 - مفهوم الديانات الوثنية
 - مفهوم الأديان التوحيدية
 - نشأة فكرة تسامح الأديان الوثنية
 - المبحث الثاني: أسباب التسامح في الديانات الوثنية من منظور مقارنة الأديان
- وفيه:

- الاتجاهات التفسيرية لظاهرة التسامح
 - الأسباب التفصيلية للتسامح، وتشمل:
 - o المرونة العقائدية (القابلية)
 - o غياب النزعة التبشيرية
 - o التشارك في المعتقدات
 - o الاندماج الثقافي واللغوي
 - o العوامل السياسية
 - o العوامل الجغرافية والانفتاح بين الشعوب
- الخاتمة:
- وتتضمن أبرز النتائج.

التعريفات وتحديد المفاهيم:

قبلولوج لموضوع الدراسة يحسن أن نعالج المفاهيم التي يجري بحثها هنا، وهي كما يأتي:

مفهوم التسامح

الأصل في معنى التسامح في اللغة العربية يعود إلى مادة "سمح"، وهو يدل على سلاسة وسهولة¹، كما أن المعنى اللغوي للتسامح يرادف التساهل²، كما أن الفعل ساهى يدل على الموافقة³.

وجاء في مجمع اللغة العربية بأن التسامح هو: "سعة صدر، تفسح للآخرين أن يعبروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليم أو قبول. ولا يحاول صاحبه فرض آرائه الخاصة على الآخرين"⁴. وفي هذا التعريف نلاحظ شموله للتسامح في الدين وفي غيره، وبغض النظر عن قبولنا لها أم عدم قبولها.

غير أن التسامح في الأدبيات الإسلامية أكثر تحديداً من هذا التعريف الواسع؛ فالتسامح كما يشير الطاهر بن عاشور، هو: "إبداء السماحة للمخالفين من جهة الدين"⁵، وهو بمعنى: "السهولة المحمودة فيما يظنّ الناس التشدد فيه. ومعنى كونها محمودة أنها لا تفضي إلى ضرر أو فساد"⁶، فهي هنا محتزنة بعدم الإضرار بالطرفين أو وقوع الفساد بإطلاقه، كما أن هذا التعريف يستمد مادته من التعريف اللغوي بشكل واضح.

ويعرفه أبو الأعلى المودودي بأن: "معناه أن نتحمل عقائد غيرنا وأعمالهم على كونها باطلة في نظرنا، ولا نطعن فيهم بما يؤلمهم رعاية لعواطفهم وأحاسيسهم، ولا نلجأ إلى وسائل الجبر والإكراه لتصريفهم عن عقائدهم أو منعهم مما يقومون به من الأعمال"⁷.

فالتعريفان السابقان يحددان التسامح بكونه تساهل مع المخالف في الدين والعقيدة، مع عدم قبول العقائد الباطلة لهذا المخالف، والتي قد تتسبب بالضرر أو الفساد على المتساهل، لا سيما في دينه ومعتقدده.

ويذهب جورج صليباً أن أحد معاني التسامح: "أن يحترم المرء آراء غيره لاعتقاده أنها محاولة للتعبير عن جانب من جوانب الحقيقة، وهذا يعني أن الحقيقة أغنى من أن تنحل إلى عنصر واحد، وأن الوصول إلى معرفة عناصرها المختلفة يوجب الاعتراف لكل إنسان بحقه في إبداء رأيه، حتى يؤدي اطلاعنا على مختلف الآراء إلى معرفة الحقيقة الكلية"⁸ وهذا التعريف على عمومه؛ لو طبق على الدين فسيفتح باب القبول-واسعاً وعلى مصراعيه- لكل عقيدة من العقائد المخالفة، كما أنه ينهل من المفهوم الغربي للتسامح كما سوف يأتي.

¹ أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الطبعة الثانية، دار الجليل، ودار الفكر، بيروت، 1969-1972م، 99/3.

² إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م، 489/2، 1733/5، ونشوان بن سعيد الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق. 3215/5.

³ علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م، 217/3.

⁴ مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، القاهرة، 1983م، ص 44.

⁵ محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 266.

⁶ محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، الطبعة الثانية، دار النفائس للنشر والتوزيع، 2011م.

⁷ أبو الأعلى المودودي، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، الطبعة الرابعة، دار القلم، الكويت، 1980م، ص 39.

⁸ جورج صليباً، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980م، 272/1.

وجاء في تعريف اليونسكو للتسامح بأنه: "يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية لدينا. ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح، والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد"⁹. وهو ما يمكن أن نلاحظ فيه انفتاحه على قبول ما لدى الطرف الآخر، وهذا الانفتاح يمكن أن يبلغ في أدنى درجاته مراعاة شعورهم وعدم جبرهم وإكراههم على غير عقيدتهم، لكنه في نفس الوقت يمكن أن يصل إلى أعلى درجات التطرف في الموافقة والإقرار بصحة ما هم عليه من العقيدة. ومن هنا سيكون التسامح متوائماً مع كل رأي ومسايراً لكل اعتقاد.

وقد تشكّلت فلسفة التسامح على نحو قبول الآخر في التعريفين الأخيرين، من مبدأ غربي نابع كما يظهر في كلام فولتير من كوننا جميعاً "نتاج ضعف وهشاشة وميل للخطأ"¹⁰. وهذا الضعف البشري يجعل الحقيقة أمراً احتمالياً لا مطلقاً، وبالتالي، لا يحق لنا رفض رأي الطرف الآخر؛ لأنه قد يكون صحيحاً، تماماً كما أن رأينا يحتمل الخطأ.

وهكذا، انتقل المفهوم الغربي للتسامح إلى حقل مقارنة الأديان؛ إذ يرى عدد من علماء هذا المجال -كما سوف يكشف هذا البحث- أن تسامح الديانات الوثنية يبلغ أقصى درجات القبول للأديان والآلهة الأخرى، ويتجلى ذلك في استيعابها ودمجها داخل المنظومة العقدية القائمة. وهذا نمط يختلف جذرياً عن مفهوم التسامح في الإسلام، كما مر معنا.

وعليه، نستنتج وجود تباين جوهري بين مفهوم التسامح في الإسلام وتعريف علماء مقارنة الأديان ومن ينهج نهجهم. ففي الإسلام، لا يعني التسامح التخلي عن ثوابت العقيدة، ولا يتضمن تبني العقائد المحرفة لدى الآخرين. على النقيض من ذلك، يرى علماء مقارنة الأديان أن من تجليات التسامح قبول الآلهة التي يؤمن بها الآخرون والإقرار بصحتها والإيمان بها.

مفهوم الديانات الوثنية:

الديانات الوثنية التي قد أعر عنها (متعددة الآلهة) هي أديان أرضية وضعية، تقوم على عبادة عدد من الآلهة أو الأوثان. وعليه فالوثنية عند علماء مقارنة الأديان، هي: "معتقد يقوم على عبادة غير الله عز وجل أو صور لآلهة أو أرواح"¹¹. وهم يؤمنون بتعدد المستحق للعبادة¹².

وعليه يمكن أن نطلق على الديانات الوثنية بأنها ديانات متعددة الآلهة، لأن القول: "بوجود آلهة كثيرة تتوزع السيطرة على قوى الطبيعة"¹³ ينطبق حرفياً على الوثنية.

مفهوم الديانات الوثنية:

الديانات الوثنية التي قد أعر عنها (متعددة الآلهة) هي أديان أرضية وضعية، تقوم على عبادة عدد من الآلهة أو الأوثان. وعليه فالوثنية عند علماء مقارنة الأديان، هي: "معتقد يقوم على عبادة غير الله عز وجل أو صور لآلهة أو أرواح"¹⁴. وهم يؤمنون بتعدد المستحق للعبادة¹⁵.

⁹ إعلان مبادئ بشأن التسامح، اعتمده المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة والعشرين، باريس، 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1995.

<https://hritc.co/12882>

¹⁰ ألفرد إير، وتوماس بالدوين، وسيمير الخليل، وكارل بوبر، التسامح بين شرق وغرب - دراسات في التعايش وقبول الآخر، الطبعة الثانية، دار الساقى، 1992، ص 76.

¹¹ أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، هبة إبراهيم النادي (إشراف)، معجم مصطلحات الأديان، مركز التاريخ العربي للنشر، مكتبة الحبر الإلكتروني، (نسخة رقمية) 1825/1.

¹² محمد بن أعلى التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم الطبعة: الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996 م، 1756/2.

¹³ جورج صليبا، المعجم الفلسفي، 303/1.

وعليه يمكن أن نطلق على الديانات الوثنية بأنها ديانات متعددة الآلهة، لأن القول: "بوجود آلهة كثيرة تتوزع السيطرة على قوى الطبيعة"¹⁶ ينطبق حرفياً على الوثنية.

مفهوم الديانات التوحيدية:

ومفهوم الأديان التوحيدية -عند علماء مقارنة الأديان- هو مفهوم بسيط يتناول الأديان التي تعتقد: "بأنه لا يوجد سوى إله واحد فقط"¹⁷، أي كان اسم هذا الإله، فسواء كان الله عند المسلمين، أو يهوه عند اليهود، أو الآب، عند النصارى، أو حتى رع عند المصريين القدماء.

وفيما يأتي سوف أتبع -بشكل تفصيلي ومنهجي- ما يوصف بتسامح الأديان المتعددة الآلهة (الوثنية)، وأوضح الأسس التي قام عليها هذا التسامح؛ من وجهة نظر المختصين والمهتمين بالديانات القديمة.

متى بدأت فكرة تسامح الأديان الوثنية؟

في القرن السابع عشر الميلادي، ومع تصاعد الصراعات الدينية في أوروبا، أصبحت قضية التسامح محوراً رئيسياً في النقاشات الفكرية، فكثير من المفكرين في ذلك الوقت استلهموا تجربة الرومان في تسامحهم الديني، حيث كانوا يرحبون بالآلهة الأجنبية ويمنحونها مكاناً في معابدهم. من بين هؤلاء المفكرين: توماس هوبز (Thomas Hobbes - 1679م) في كتابه الليفيثان (1651م)، وجون لوك (John Locke - 1704م) في مقاله عن التسامح (حوالي 1668م)، وبير بايل (Pierre Bayle - 1706م)، في تعليقاته الفلسفية (1686-1688م)¹⁸.

وهؤلاء الفلاسفة، خصوصاً بايل، أبدوا اهتماماً واضحاً بفكرة التسامح، لكن بقيت نظرتهم لعبدة الأصنام بشكل عام سلبية. وبمرور الوقت، وتحديداً في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، أصبحت فكرة التسامح مع الوثنيين أكثر قبولاً وانتشاراً، لدرجة أنها تحولت إلى مسألة متعارف عليها في بعض الأوساط الفكرية، وهو ما يتجلى بوضوح في كتابات مونتسكيو (Montesquieu - 1755م)، وديفيد هيوم (David Hume - 1776م)، بل وحتى ليفيسك دي بوريني (Louis-Jean Lévesque de Pouilly - 1751م)، وشارل دي بروس (Charles de Brosses - 1777م)، و البارون دي هولباخ (Baron d'Holbach - 1789م)، وفولتير (Voltaire - 1778م)¹⁹.

وكان حاصل هذا التوجه أن برزت أفكار -في تلك الفترة- مثل:

- أن التسامح سمة من سمات الوثنية وطبيعة متأصلة فيها.
- أن الوثنية دين لطيف ومبهج، يمكن أن يُرسم له صورة شعرية ضاحكة.²⁰

¹⁴ أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، هبة إبراهيم النادي (إشراف)، معجم مصطلحات الأديان، مركز التاريخ العربي للنشر، مكتبة الخبر الإلكتروني، (نسخة رقمية) 1825/1.

¹⁵ محمد بن أعلى التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم الطبعة: الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996 م، 1756/2.

¹⁶ جورج صليبا، المعجم الفلسفي، 303/1.

¹⁷ جون ر. هينليس، معجم الأديان -الدليل الكامل للأديان العالمية، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، 2010م، ص 463

¹⁸ Laura Nicoli, Lugubre et riant, doux et intolérant : le paganisme vu par les Lumières,

<https://doi.org/10.4000/theoremes.863>

¹⁹ Ibid.

الملاحظ: أن جان جاك روسو خالف هذا الاتجاه ولم يساير الرأي العام العلمي في رأيه حول الدين الوثني. راجع: العقد الاجتماعي، بدون، مؤسسة هنداي،

المملكة المتحدة، 2013، ص: 163

²⁰ Nicoli, "Lugubre et riant, doux et intolérant."

ثم استمرت هذه الفكرة وتطورت عبر الزمن، حتى أصبحت الفكرة السائدة عند الباحثين الغربيين اليوم في مقارنة الأديان، سواء من الغرب أو من سار على مناهجهم في مقارنة الأديان من الباحثين العرب .
ومن هؤلاء الباحثين الغربيين المعاصرين أذكر: لورا نيكولي (Laura Nicolì) ، ويان أسمان (Jan Assmann) ، وإستر إيدينوف (Esther Eidinow) وجوليا كيندت (Julia Kindt) ، وكارن أرمسترونغ (Karen Armstrong) وغيرهم .
بينما يبرز من الباحثين العرب كل: من فراس السواح، وخزعل الماجدي. وقد جرى الاستشهاد بأعمالهم ضمن ثنايا هذه البحث.

أسباب التسامح في الديانات الوثنية من منظور مقارنة الأديان

قبل اللوئح إلى الأسباب التي فسرت التسامح من وجهة نظر علماء مقارنة الأديان يحسن أن أعرض الاتجاهات العامة لتفسير هذا التسامح، وهي تمثل خطوطاً عامة وعريضة، تقترب من تفسير هذه الأسباب.
الاتجاهات التفسيرية لظاهرة التسامح في الأديان الوثنية:

يتباين المختصون في تفسير الأسباب العميقة التي يُعزى إليها ما يوصف بتسامح الديانات الوثنية، وقد تبلورت في هذا السياق مقاربتان رئيسيتان لتفسير هذه الظاهرة:

الأولى: تذهب إلى أن هذا التسامح نابع من الطبيعة العقدية للديانات متعددة الآلهة نفسها؛ إذ إن البنية الدينية القائمة على تعدد المعبودات تتيح من حيث المبدأ إمكان الاعتراف بوجود آلهة أخرى إلى جانب الآلهة المحلية، الأمر الذي يجعل هذه الديانات أكثر قابلية لاستيعاب التنوع الديني. غير أن هذا التفسير لا يخلو من إشكال؛ إذ تشير الشواهد التاريخية إلى وقوع حالات من التعصب أو الاضطهاد في بعض البيئات الوثنية، مثل بعض الصراعات الدينية في مصر القديمة، أو ما تعرض له النصارى الأوائل في الإمبراطورية الرومانية. وهو ما يدل على أن التسامح لم يكن سمة مطلقة ملازمة لكل البيئات الوثنية، بل ظاهرة تتخللها استثناءات تاريخية²¹.

أما المقاربة الثانية: فتميل إلى تفسير الظاهرة في ضوء السياقات الاجتماعية والسياسية الخاصة بكل مجتمع، دون تعميمها على جميع الأديان الوثنية. ووفقاً لهذا الاتجاه، فإن ما يُضرب به المثل عادةً من تسامح ديني في العالم القديم يرتبط في الغالب بتجربة معينة، مثل التجربة الرومانية، التي اتسمت بقدر من المرونة في التعامل مع آلهة الشعوب الخاضعة لها. ومن ثم لا يُعد هذا النموذج قاعدة عامة تنطبق على جميع المجتمعات الوثنية، بل حالة تاريخية مخصصة تشكلت في إطار ظروف سياسية واجتماعية معينة²².

وغالباً ما يميل بعض الباحثين في مقارنة الأديان - ولا سيما من يتبنون اتجاهات إلحادية نقدية للأديان - إلى ترجيح المقاربة الأولى؛ لما تتيحه من تقديم صورة عامة مفادها أن التوحيد يقود بطبيعته إلى نوع من الحصرية العقدية، في حين تسمح الأديان متعددة الآلهة بقدر أكبر من الانفتاح الديني. في المقابل، يفضل باحثون آخرون تفسير الظاهرة تفسيراً سياقياً يربطها بالظروف السياسية والاجتماعية التي نشأت فيها، ويرون أن ما يبدو تسامحاً دينياً في بعض المجتمعات القديمة إنما كان نتاجاً لترتيبات سياسية أو اجتماعية أكثر منه نتيجة مباشرة للبنية العقدية للدين نفسه²³.

وعلى الرغم من أهمية هذين الاتجاهين في تفسير الظاهرة، فإن فحص الأدبيات المتخصصة يكشف عن مجموعة من الأسباب التفصيلية التي أسهمت في تشكل هذا النمط من التسامح في البيئات الوثنية. ومن ثم، سيسعى هذا البحث - في الفقرات الآتية

²¹ Nicolì, "Lugubre et riant, doux et intolérant."

²² Ibid.

²³ Nicolì, "Lugubre et riant, doux et intolérant."

– إلى إبراز هذه الأسباب وتحليلها، مع تقويم مدى إسهامها في نشوء ظاهرة التسامح الديني ضمن سياقاتها التاريخية المختلفة، وصولاً إلى ترجيح تفسيري موجز يُبنى على نتائج هذا التحليل في خاتمة الدراسة.

الأسباب التفصيلية للتسامح في الأديان الوثنية من منظور مقارنة الأديان:

بعد استعراضٍ متعمقٍ للأدبيات المتوفرة في مجال مقارنة الأديان، سواء في الكتب أو الأبحاث المتخصصة، يمكننا أن نعزو وجود التسامح عند الأديان الوثنية كما يراها المتخصصون في مقارنة الأديان إلى الأسباب التفصيلية الآتية:

1- المرونة العقائدية (القابلية):

يُشير العديد من الباحثين إلى أن التسامح الديني في المجتمعات القديمة لم يكن مجرد انعكاس للعوامل الاجتماعية والسياسية، بل كان متأصلاً في بنية العقيدة نفسها، حيث تمتعت الديانات متعددة الآلهة بقدرٍ من المرونة الفكرية جعلها أكثر انفتاحاً على استيعاب الآخر. ففي هذا السياق، يرى الفيلسوف ديفيد هيوم أن التقاليد الدينية التي نشأت في ظل تعدد الآلهة تتيج قبول ممارسات وعقائد متنوعة، حتى وإن بدت فاسدة وبربرية، إذ يسمح هذا النموذج الديني بتقديس آلهة الطوائف والأمم الأخرى دون قيود.²⁴

فيرى علماء مقارنة الأديان، أن النظام العقائدي القائم على تعدد الآلهة يتميز بعدم احتكار مفهوم الألوهية، حيث لا تقتصر السلطة المطلقة على إله واحد، بل تتوزع بين عدة آلهة، لكل آلهة اختصاصاتها المحددة، مما يسهل استيعاب آلهة جديدة ضمن الدين الوثني نفسه، ويُقلل من الشعور بالتناقض عند إدخال هذه الآلهة الجديدة ضمن النظام القائم. وهذا التعدد يخلق مساحة للتفاعل والانخراط في العبادات المتنوعة، إذ يُنظر إلى جميع الآلهة في الديانتين على أنها آلهة تستحق التقديس والعبادة، بغض النظر عن كيفية ذلك.²⁵

وهكذا، يرى علماء مقارنة الأديان؛ أن في بنية الدين الوثني ما يُمكن معتنقيه من الاشتراك في عبادة الآلهة المتعددة نفسها عند جميع الشعوب في نفس الوقت.. فهي جميعها من حيث المبدأ متساوية وتستحق العبادة بصورها وأشكالها المختلفة²⁶، مما يعني أن الدين متعدد الآلهة يملك المرونة التي تجعل الفرد يتقبل كل الآلهة على حد سواء حتى لو كانت من ديانات مختلفة، بل وينخرط في طقوسها الخاصة إن دعت الضرورة.²⁷

وهكذا أسهمت المرونة أو القابلية في ظل وجود تنوعٍ للمعتقدات الدينية القديمة والأديان الوثنية المختلفة في ترسيخ تقبل تعدد الآلهة؛ إذ كان أتباع تلك الديانات ينظرون إلى الآلهة المختلفة بوصفها تجلياتٍ متعددة لحقيقةٍ إلهيةٍ واحدة. ومن الشواهد على ذلك أنه عندما غزا الآريون منطقة وادي الأندوس (المعروفة اليوم بإيران)، وفرضوا معتقداتهم الدينية على السكان الأصليين، نشأ عن هذا مجموعة كبيرة من الآلهة المشتركة. هذه الآلهة الجديدة، رغم تنوع أسمائها وصفاتها، كانت في جوهرها تعبر عن نفس القيم والمبادئ التي آمن بها كلا الشعبين، حيث نشأت من مزيجٍ من معتقدات الغزاة والسكان

²⁴ ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، الطبعة الأولى، دار الفرقد، دمشق، 2014، ص 67-68

²⁵ Jan Assmann, "Monotheism and Polytheism," in Religions of the Ancient World: A Guide, ed. Sarah Iles Johnston (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004), <https://doi.org/10.4159/9780674039186-006>

²⁶ Esther Eidinow and Julia Kindt, Ancient Greek Religion (Oxford: Oxford University Press, 2015), 309-10.

²⁷ فراس السواح، دين الإنسان - بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، مؤسسة هندواي، 2022، المملكة المتحدة، ص 91.

الأصليين²⁸، وهذا يشير إلى توافر قدر كبير من المرونة والقابلية عند الديانة الوثنية للآريين؛ أتاح هذا التمازج الذي حصل بين المعتقدات المختلفة.

من هذا المنطلق، أتاح التنوع العقائدي في الحضارات القديمة فرصة لتعزيز فكرة التعددية الدينية، حيث اعتبر أتباع الديانات متعددة الآلهة أن الآلهة المختلفة ليست سوى انعكاسات متعددة لحقيقة إلهية واحدة. ويظهر هذا المفهوم في الديانة الهندوسية، حيث يُعبّر عنه في نصوص مثل الـ"ريج فيدا" (Rig Veda) التي تقول: "الحقيقة واحدة، ويُطلق عليها الحكماء أسماء مختلفة"، وفي الـ"بهاجافاد غيتا" (Bhagavad Gita): "أيًا كان الطريق الذي يسلكه الناس، فهو طريقي؛ أينما ساروا، فهو يقودني"²⁹، وهكذا ورد في الـ"فيدانتا" (Vedanta) إن جميع الأديان تحمل في طياتها نفس الحقائق الجوهرية، وإن اختلفت صيغها"³⁰، مما يعكس رؤية دينية تقوم على قبول التنوع العقائدي.

وقد أشار فولتير إلى ملمح مرونة وقابلية الأديان الوثنية في التأثير بغيرها من المعتقدات، فقد أكد على أن الوثنيين لم يمتلكوا دينًا حصريًا يمنعهم من تقبل المعتقدات الأخرى، بخلاف الديانات التوحيدية التي تُركّز على عبادة إله واحد، مما يجعلها أقل تسامحًا تجاه الأديان المختلفة. ويشارك هيوم هذا الرأي، إذ يرى أن الأديان متعددة الآلهة ذات طابع اجتماعي، يسمح أتباعها للتعايش مع المعتقدات المختلفة، بينما تميل الأديان التوحيدية -نظرًا لتركيزها على وحدة الإله المعبود- إلى التشدد في رفض العقائد الأخرى، مما يؤدي إلى نوع من التعصب الديني³¹.

2- غياب روح الدين المسيطروالروح التبشيرية:

يرى مونتسكيو أن الأديان الوثنية أكثر تسامحاً لأنها لا تسعى إلى فرض سيطرتها على الآخرين. فهي لا تحاول فرض معتقداتها أو الهيمنة على المجتمع، مما يخلق فرصة أكبر للتسامح والانفتاح مع المعتقدات الأخرى³². كما يشير مونتسكيو إلى أن هذه الأديان تفتقر إلى "الروح التبشيرية"، وهي فيما يبدو متصلة بالروح المسيطرة للدين التي تحاول فرض معتقداتها بالتبشير بها، فالأديان الوثنية لا تهدف إلى نشر عقيدتها بين الآخرين أو إجبارهم على اعتناقها. وعلى العكس، الأديان التوحيدية في بعض الأحيان حملت نزعتها التبشيرية، مما أدى إلى ظهور حالات من التعصب والصراعات الدينية³³.

3- التشارك بالمعتقدات الرئيسة:

ومن الأسباب التي يبرزها علماء مقارنة الأديان في تفسير نشوء التسامح داخل البيئات الوثنية: تشارك هذه الأديان في معتقداتٍ كبرى حول الآلهة. فكلما اتسعت مساحة الاشتراك في الأصول العقدية العامة، ازدادت قابلية الأطراف لمراعاة منظور

²⁸ كارين آرمسترونغ، الله والإنسان، الطبعة الأولى، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، 1996، ص41.

²⁹ Swami Tyagananda, "Harmony of Religions," Vedanta Society, accessed March 7, 2026, <https://vedanta.org/what-is-vedanta/harmony-of-religions>

³⁰ Ibidem

³¹ Nicoli, "Lugubre et riant, doux et intolérant."

³² Ibid

³³ Ibid.

الأخر، ومن ثم ارتفعت احتمالات قبول معتقداته التفصيلية. أمّا إذا غاب هذا الاشتراك أو ضعف، فإن فرص التقارب والتسامح تتضاءل تبعاً لذلك³⁴.

ويمكن فهم التشابه اللافت في أنماط عبادة الآلهة بين الشعوب المختلفة بوصفه ثمرةً لتقارب وظائف الآلهة وأدوارها عبر الثقافات؛ إذ يفضي تماثل الوظائف (كالخلق والرزق والحماية والشفاء والخصب والحرب...) تدريجيًا إلى تقارب في التصورات المرتبطة بها. وحتى حين لا تبدأ العقائد من نقطة توحّد صريح، فإن هذا التشابه البنيوي في المعتقدات يمهد الطريق - مع مرور الزمن - إلى نوع من الاعتراف المتبادل بالآلهة عبر المجتمعات المختلفة.

ومتى ما تحقق الاشتراك في وظائف الآلهة وأدوارها، انسحب ذلك في كثير من الأحيان على تصوّر ذواتها؛ أي إن الآلهة المتقابلة في الثقافات المختلفة تُفهم بوصفها أسماءً أو صوراً متعددة للإله نفسه. وفي هذا السياق يستشهد علماء مقارنة الأديان بأقوال مفكرين وعلماء وفلاسفة من البيئات الوثنية تفيد بأن تعدد أسماء الآلهة وتنوع طرائق العبادة بين الشعوب لم يحل دون شيوع اعتقادٍ يسمح بالإيمان بآلهة الأمم المختلفة مجتمعةً؛ إذ كان التصور السائد لدى فريقٍ منهم أن هذه الآلهة ليست إلا مظاهر متعدّدة لحقيقةٍ إلهيةٍ واحدة أسمى³⁵، وليس المقصود هنا توحيدًا بالمعنى الاصطلاحي للأديان التوحيدية، بل أقرب إلى نزعة تفسيرية عقلية/فلسفية تسعى إلى فهم التنوع الإلهي بوصفه انعكاسًا لوحدةٍ عليا تقف وراء العالم.

ومن الشواهد التي تُذكر في هذا الباب أمثلةٌ من البيئة الوثنية، من بينها القول إن اليونانيين رأوا أن (يهوه) إله اليهود يُقابل "إله الزمن/الدهر" (أولام-أيون)، وأنه يتجلّى بأسماء مختلفة بحسب الفصول: هاديس في الشتاء، وزيوس في الربيع، وهيليوس في الصيف، و(ياو) في الخريف³⁶ وفي السياق نفسه يرد عن المفكر الموسوعي الروماني فارو (Varro 116 ق.م) تقريرٌ مفاده أن لا فرق جوهريًا بين (جوبيتر) الإله الأعلى في الديانة الرومانية و(يهوه) إله اليهود، وهو ما عبّر عنه بقوله: "لا فرق في الاسم الذي يُنادى به، ما دام الشيء نفسه هو المقصود"³⁷.

وكذلك ذهب الفيلسوف اليوناني كيلسوس (Celsus 180 م) بأن "لا فرق بين أن يُسمّى الإله (الأسمي) هيبستوس أو زيوس أو أدوناي أو سباؤوت أو آمون كما يفعل المصريون، أو بابايوس كما يفعل السكيثيون. فالاسم لا يهم عندما يكون واضحًا ما الذي يُقصد.." ويصرّح المؤرخ والفيلسوف اليوناني بلوتارخ (نحو 120 م) بمعنى قريب حين يؤكد أن اختلاف الأمم في الأسماء لا يستلزم اختلافًا في الحقيقة المدبرة للعالم، مشبّهًا ذلك باشتراك البشر في الشمس والقمر والسماء والأرض والبحر مع اختلاف تسمياتهم لها، وكذلك الأمر - عنده - مع العقل الواحد (اللوجوس) والعناية الإلهية الواحدة³⁸.

وأخيرًا قدّم العالم الموسوعي الروماني بلينيوس الأكبر (ت 79 م) صياغة موجزة للفكرة نفسها حين قرّر أن الآلهة ليست سوى "أسماء مختلفة لشعوب مختلفة"³⁹.

وتفيد جملة هذه الشواهد - في قراءة علماء مقارنة الأديان - أن الوثنيين كانوا أكثر استعدادًا لقبول آلهة الشعوب الوثنية الأخرى، لا لأنهم تخلّوا عن آلهتهم، بل لأنهم مالوا إلى استيعاب آلهة الآخرين ضمن أفقٍ عقديٍّ مشترك؛ يقوم على أن اختلاف

³⁴ David Basinger, "Religious Diversity (Pluralism)," Stanford Encyclopedia of Philosophy, accessed March 7, 2026, <https://plato.stanford.edu/entries/religious-pluralism/>.

ديفيد هبوم، التاريخ الطبيعي للدين، الطبعة الأولى، دار الفرقد، دمشق، 2014، ص 49.

³⁵ Jan Assmann, Of God and Gods: Egypt, Israel, and the Rise of Monotheism (Madison: University of Wisconsin Press, 2008), 54..

³⁶ Assmann, Of God and Gods, 55.

³⁷ Ibid, p.56.

³⁸ Ibid.

³⁹ Ibid.

الأسماء والتمثيلات والطقوس إنما يحيل في النهاية إلى مسعى واحد تتعدد وجوهه بتعدد الأمم والثقافات، وهو ما يفسر جانباً من آليات التسامح الديني داخل المجال الوثني.

4- الاندماج الثقافي واللغوي:

ففي الأديان الوثنية، كانت الآلهة تُميز بالاسم والشكل والوظيفة، وبالتالي إمكانية صياغة عالم دلالي مشترك. هذا البعد الدلالي هو ما يجعل الأسماء قابلة للترجمة، ما جعل من الممكن مساواة آلهة من ثقافات مختلفة ببعضها البعض. وبالتالي قبول الآلة القادمة من شعوب أخرى⁴⁰.

وقد أدت ممارسة شائعة وهي ترجمة اسم إله ما إلى خلق مفهوم التشابه بين الآلهة عند الشعوب، وأنتجت فكرة أو قناعة بأن الآلهة عالمية⁴¹، ففي بلاد ما بين النهرين، وُجدت قوائم تفسيرية، مثل: "أنو سا أميلي" (Anu sa ameli)، تحتوي على أعمدة تُعطي الاسم السومري، والاسم الأكادي، والتعريف الوظيفي للإله، مما يُظهر مبدأ معادلة أو ترجمة أسماء الآلهة. وفي الفترة الكاشية⁴² تم توسيع هذه القوائم لتشمل لغات مثل: الأمورية، والحوورية، والعيلامية، والكاشية، مما يدل على تطبيق ممارسة ترجمة أسماء الآلهة على ثقافات وديانات مختلفة⁴³.

فعند إبرام اتفاقيات بين الدول أو المدن، كانت العقود تُوثق بقسم، والقسم يُقسم باسم الآلهة. لذلك، كان من الضروري أن تكون آلهة الطرفين متوافقة (أي يفهم كل طرف آلهة الطرف الآخر كأنها تعني نفس الشيء أو تشبه آلهته). تم إعداد جداول تُظهر "مكافآت الآلهة" (أي أن الإله الفلاني عند السومريين = الإله الفلاني عند الأكديين، وهكذا)، ووصل الأمر إلى الربط بين ستة أنظمة دينية (بانثيونات) مختلفة. وهكذا كان إبرام أي تحالف أو اتفاق يتم باسم آلهة كلا الجانبين المتعاقدين، فهذا الربط والتكامل لم يكن ممكناً لو كانت الشعوب تعتقد أن آلهة الآخرين مزيفة أو غير حقيقية⁴⁴.

وهكذا يرى علماء مقارنة الأديان أنه إذا كان هذا الربط أو الترجمة يهدف إلى إيجاد نقاط تشابه بين الآلهة الأجنبية والآلهة المحلية، فهو سهل -بعد ذلك- دمج الآلهة الجديدة في البانثيون المحلي. وقد أدى هذا النهج إلى تعزيز التسامح الديني، حيث لم تُعتبر الآلهة الأجنبية تهديداً، بل تم دمجها ضمن النظام الديني القائم⁴⁵.

وقد يكون المحرك لهذا الدمج والمحفز له الانهيار الثقافي الذي يتعرض له شعب ما، والشعور بعظمة الآلهة الأخرى، بمقابل ما يعرفه من آلهة ومعتقدات، وهكذا لما وفد اليونانيون إلى الشرق ما لبثوا أن أدركوا أنهم أمام شبكة راسخة من الآلهة الشرقية الأشد عراقية في التاريخ القديم، والضاربة جذورها إلى أزمان بعيدة، فبدأوا يتلمسون جذور آلهتهم في الآلهة الشرقية، وخصوصاً الآلهة الكنعانية والفينيقية، والآلهة العراقية القديمة، والآلهة المصرية، وهنا حدث الدمج بعد المطابقة والمقابلة بين آلهتهم والآلهة المشابهة لها⁴⁶.

⁴⁰ Assmann, Of God and Gods, 54.

⁴¹ Jan Assmann, "Monotheism and Polytheism," in Religions of the Ancient World: A Guide, ed. Sarah Iles Johnston (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004), <https://doi.org/10.4159/9780674039186-006>.
Assmann, Of God and Gods, 54.

⁴² الفترة الكاشية هي مرحلة من تاريخ بلاد الرافدين (بابل) حين حكمت السلالة الكاشية، نحو 1595 ق.م إلى نحو 1155 ق.م تقريباً.

⁴³ Assmann, "Monotheism and Polytheism".

Assmann, Of God and Gods, 54.

⁴⁴ Jan Assmann, The Price of Monotheism (Stanford, CA: Stanford University Press, 2010), 19.

⁴⁵ Maurizio Bettini, In Praise of Polytheism (Oakland: University of California Press, 2014), 77.

⁴⁶ انظر: خزعل الماجدي، كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدد والتوحيد، مؤسسة هندواي، المملكة المتحدة، 2025، ص 80.

وبناء عليه يرى بعض الباحثين أن انتشار الآلهة الجديدة داخل النظم الدينية التعددية يشبه الطريقة التي تتطور بها اللغة عبر الزمن، حيث تُضاف مفردات جديدة لم تكن موجودة من قبل. وهذا ما حدث في روما، حيث ظهرت آلهة مثل: هونوس، وفيدس، ومينس، وكونكورديا، وأصبحت جزءاً من المعتقدات الدينية مع مرور الوقت.⁴⁷

5- الأسباب السياسية:

أشار علماء مقارنة الأديان إلى أنه إذا ما عَظُم شأن سلطة سياسية ما؛ انتشرت عبادة الآلهة الخاصة بهذه السلطة، فقد ارتبط انتشار عبادة بعض المعبودات في مصر القديمة، في أحوال عديدة، باتساع نفوذ الجماعة أو السلطة السياسية التي تبنتها؛ إذ لم يكن حضور الآلهة يتحصر دائماً في موضع نشأتها المحلية، بل قد يتجاوز إلى أقاليم أخرى بقدر ما تتيحه قوة المركز السياسي وشبكاته الإدارية والدينية من قبولٍ وتداولٍ لطقوسه.⁴⁸

ومن الأدلة التي ساقوها للدلالة على أن الإرادة السياسية المباشرة لها أثرها في تحقيق هذا القبول وإقناع الناس بالآلهة الجديدة، ما قام به بطليموس الأول (283 Ptolemy I Soter ق.م) عندما كون لجنة من علماء الدين المصريين واليونانيين لاختيار الديانة التي يقبلها كل من المصريين واليونانيين معاً، وكان من بين أعضاء اللجنة الكاهن المصري مانيتون (Manetho) والكاهن الاغريقي تيموثيوس (Timotheus)، حيث استقرت اللجنة على اختيار ثلاثة آلهة تشكل ثلوثاً مكوناً من إلهين مصريين هما: إيزيس، وحورس، وإلهاً مشتركاً بين المصريين والإغريق وهو سراييس.⁴⁹

وما يؤكد أن قبول الآلهة الأخرى كان مرتبطاً بالظروف السياسية، هو أن يوليوس قيصر (Gaius Julius Caesar - 44 ق.م) بعد أن انفرد بالسلطة في عام 47 ق.م، شهدت عبادة الإلهة المصرية إيزيس ازدهاراً ملحوظاً، وذلك بتأثير من كليوباترا (Cleopatra VII Philopator - 30 ق.م). هذا التأثير مهّد لاحقاً للاعتراف الرسمي بهذه العبادة من قبل الحكومة الرومانية.⁵⁰

ويمكن الربط بين النفوذ السياسي وانتشاره وبين السبب السابق له، وهو الفتوحات الخارجية، وهو سبب يتعرض له علماء مقارنة الأديان لتعليل قبول آلهة الشعوب الأخرى وامتزاج عقائد الديانات الوثنية بين الشعوب، وذلك أن هذه النشاطات العسكرية المتمثلة بالفتوحات الخارجية فتحت أبواب التواصل مع بين الشعوب، ومن ذلك أن الفتوحات اليونانية -التي بدأت في القرن السابع قبل الميلاد- أدت إلى أن يؤسس اليونانيون في القرن السادس قبل الميلاد مدينة "نواكراتيس" في دلتا مصر، وهو ما ساهم في انتشار الديانة المصرية وآلهتها إلى الجزر اليونانية. كما ساعدت فتوحات الإسكندر الأكبر -لاحقاً- في نشر المعتقدات اليونانية التي امتزجت بالمعتقدات المصرية⁵¹. وهذا يدل على أن الفاتح اليوناني نفسه؛ تأثر بالثقافة الدينية للشعب المصري الذي غزاه.

ومثل هذا التأثير نجده في حالة الآريين عندما غزوا الهند واستقروا فيها؛ إذ تأثروا بحضارة وادي السند وامتصوا الكثير من عناصرها، فاقتبسوا من السكان الأصليين غالبية معتقداتهم الدينية، ودمجوا العديد من آلهتهم في صميم عقيدتهم، ثم أضفوا عليها الطابع الآري.⁵²

ويمكن ملاحظة الربط الذي يشير إليه علماء مقارنة الأديان بين تأثير السلطة السياسية وبين تعزيز التسامح مع آلهة الشعوب الأخرى؛ من خلال ظاهرة معروفة في التاريخ الروماني تُسمى ظاهرة: "الاستدعاء" (evocatio). فعندما كان الرومان

⁴⁷ Bettini, In Praise of Polytheism, 77.

⁴⁸ انظر: محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى - الحضارة المصرية القديمة (الجزء الثاني)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1989، 327/5.

⁴⁹ انظر: إيزهيم نصحي، تاريخ مصر في عهد البطالمة، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1987، 177/2-178.

⁵⁰ انظر: أحمد علي عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004م، ص 106.

⁵¹ انظر: دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 103.

⁵² انظر: محمد إسماعيل الندوي، الهند القديمة وحضارتها ودياناتها، دار الشعب، القاهرة، 1970م، ص 48-49.

يحاصرون مدينة ما، كان يُمنح القائد العسكري صلاحية استدعاء الآلهة الحامية لتلك المدينة، كما حدث في عام 396 ق.م مع القائد ماركوس فوريوس كاميليوس (365- Marcus Furius Camillus ق.م). عند أسوار مدينة فيي (Veii)، وكذلك في عام 146 ق.م مع بوبليوس كورنيليوس سكيبو الإفريقي (Publius Cornelius Scipio Africanus 129 ق.م) عند حصار قرطاج⁵³، وقد كانت هذه الطقوس تُنفذ في احتفال ديني معقد، تُوجّه فيه دعوة رسمية للآلهة بأن تترك مدينتها الأصلية مقابل وعد بتكريم أكبر في روما، بل وربما بمرتبة أعلى مما كانت عليه في موطنها السابق. وبهذا الطقس، يُعتقد أن المدينة تفقد حمايتها الإلهية، مما يُسهّل سقوطها عسكرياً، بينما تُدمج الآلهة في النسيج الديني والسياسي لروما، مدفوعة بقوة السلطة الرومانية نحو التعايش والاندماج في بيئتها الجديدة⁵⁴.

ويُسهم البعد السياسي أيضاً في ازدهار التجارة بين الشعوب، مما يعزز التواصل والتفاعل بين الناس. فبفضل سياسة الإسكندر الأكبر، بدأت تجارة الشرق الأقصى تجد طريقها إلى البحر المتوسط، ومعها انتشرت عبادة الإله مِثرا (أو مِترا) نحو مناطق الأناضول ثم إلى إيطاليا⁵⁵.

بهذا الشكل، دعمت الدولة في أثينا عبادة الإلهة بنديس ودمجتها ضمن العبادات الرسمية العامة. وفي روما، عندما تولى الإمبراطور كاليغولا الحكم (41-Caligula م) في الفترة (37-41 م)، شجع بدوره عبادة الإلهة المصرية إيزيس، وأعاد بناء معابدها، مما أدى إلى ازدهار عبادتها وانتشارها في مختلف أنحاء الإمبراطورية دون أن تواجه أي معارضة تُذكر⁵⁶.

ويرى دي بروس (Charles de Brosses 1777 م). أن الرومان كانوا مثلاً للتعددية والتسامح الديني، لكن هذا التسامح لم يكن نابغاً من احترام حقيقي للأديان الأخرى، بل كان في الأصل استراتيجية سياسية تهدف إلى استيعاب الثقافات المختلفة⁵⁷، والواقع أن هذا التسامح، لو لم يكن مرتبطاً بالدين ابتداءً، لما وجد له قبولاً من مختلف فئات المجتمع الذين لا يتحدون في ميولهم واتجاهاتهم ولا يجمعهم جامع إلا أن يكون الدين نفسه. فهذا التسامح المذكور لم يصدر فقط عن السياسيين، بل أيضاً صدر عن الكهنة، والتجار، والعامة، أي أنه كان مقبولاً لدى جميع فئات الشعب. نعم كان الجانب السياسي له أثره الكبير في كثير من الأحيان، غير أن المرونة والقابلية الدينية هي عامل مهم والأساس الذي قام عليه هذا التسامح.

6- انفتاح البلدان على بعضها جغرافياً وسهولة التنقل بينها:

ويشير علماء مقارنة الأديان أهمية الانفتاح الجغرافي في قبول المعتقدات الأخرى عند معتنقي الديانات الوثنية، فقد أدى التجاور الجغرافي بين الأقاليم، وسهولة انتقال الشعوب بينها؛ إلى انتشار الآلهة المحلية في غير موطنها الأصلي، ومن ذلك تعليل أدولف إرمان أن انتشار الآلهة المصرية في أماكن بعيدة من موطنها داخل مصر بالطبيعة الجغرافية لمصر، فيقول: "فمصر لا تشبه في طبيعتها أي بلد آخر، إذ إن في الاستطاعة اجتياز هذا البلد من أقصاها بسفينة تعبر مياه النيل دون عائق"⁵⁸. مما يعني أنه متى ما سهل السفر والتنقل بين البلدان الأخرى، لا سيما المتجاورة، فإن ذلك يعني سهولة انتقال الثقافات بين الشعوب المتقاربة وعلى رأسها الآلهة المعبودة، وهو الأمر الذي يمكن أن ينطبق على مصر وغيرها، مع توفر هذا الشرط.

⁵³ Bettini, In Praise of Polytheism, 78 -79.

⁵⁴ Bettini, In Praise of Polytheism, 78 -79

⁵⁵ دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 86، نقلاً عن: تراث فارس، ص 45.

⁵⁶ دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 107

⁵⁷ Nicolì, "Lugubre et riant, doux et intolérant."

⁵⁸ دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ص 86، نقلاً عن: ديانة مصر القديمة، ص 7.

خاتمة:

قد تتداخل الأسباب التي تجعل من الأديان الوثنية أو متعددة الآلة؛ قابلة لدمج آلهة أخرى، فيما اصطلاح عليه الباحثون -في مقارنة الأديان- بالتسامح.

غير أنه من الواضح أن أساس هذه الأسباب، هو: استعداد يتضح من خلال: مرونة وقابلية داخلية في هذه الأديان لقبول المعتقدات الأخرى، أي أن الأساس في عملية التسامح هو الدين الوثني نفسه. وهو ما أشار إليه هيوم -بذكاء- من أن التقاليد العامة التي تُنتج عبادة الآلهة المتعددة؛ تُجيز أي ممارسة أو رأي مهما كان هذا الرأي "بربرياً وفساداً" بما في ذلك عبادة الآلة الأخرى. وقد وضع هيوم التقاليد العامة بما يفيد أنها معتقدات وتصورات شعبية، أي أنها في النهاية دين أو تصورات دينية⁵⁹.

وتظلّ الأسباب الأخرى مرتبطة بمدى قابلية الدين الناشئ في هذه التقاليد الشعبية للقبول والتسامح؛ فإذا اتسمت المنظومة الدينية بالمرونة - كما هو الشأن في كثير من الديانات الوثنية - تهيأت الشروط لأن تُفضي العوامل الطارئة إلى قبول آلهة ومعتقدات جديدة والتعرّف إليها وإدماجها. فحتى العامل السياسي، على أهميته وخطورته، والذي أسهم في قبول آلهة الآخرين لدى اليونان والرومان في وقائع موثقة تاريخياً؛ ما كان ليؤثر في الساسة أو الكهنة أو عامة الناس لولا وجود قابلية دينية مسبقة للتسامح لدى هؤلاء، على اختلاف مواقعهم الاجتماعية. وسائر العوامل تجري على النهج نفسه.

كل هذا يقودني إلى افتراض سبب رئيس وعميق في ذات الدين المتعدد الآلهة، وهو مرونته وقابليته للتسامح مع الأفكار والاعتقادات الجديدة والتي هي في أصلها من جنسه، وليست في بنيتها غريبة عليه، أما جميع الأسباب الفرعية المذكورة في هذه الورقة، فهي سبب محفز للسبب الرئيس الغائر في أعماق الدين الوثني، والتي هي أسباب تسمح لها هذه القابلية بالعمل والتأثير. وعليه فكلما طرأ سبب من هذه الأسباب الفرعية في البيئة التي يعمل فيها الدين متعدد الآلهة؛ وجد قابلية في الدين نفسه فتم التسامح بقبول الجديد.

وهكذا، كلما طرأ سبب من هذه الأسباب الفرعية في البيئة التي يعمل فيها الدين متعدد الآلهة؛ وجد قابلية في الدين نفسه فتم التسامح بقبول الاعتقاد الجديد. وعليه سيكون السرّ في هذه المرونة أو القابلية لهذه الأديان، أي كلما ظهر سبب خارجي يدعو للانفتاح (سياسي، اجتماعي، اقتصادي)؛ وجد بيئة دينية مستعدة بالفعل لهذا الانفتاح، وكما أن الشجرة لا تنمو إلا في التربة المناسبة، فكذلك التسامح لا يزدهر إلا في بيئة دينية تقبله من داخلها بحيث تكون مرنة وقابلة للإنبات. وعليه فالأديان الوثنية بُنيت أساساً لتكون منفتحة ومتقبلة للتنوع ومستوعبة له.

التوصيات:

- 1- ضرورة تحرير مفهوم التسامح عند دراسة الأديان عامة والأديان الوثنية خاصة.
 - 2- عدم إسقاط المفاهيم الغربية على التصورات الإسلامية، لاسيما في الدراسات الدينية والعقائدية.
- أهمية التوسع في الدراسات المقارنة النقدية، التي تميز بين التسامح بوصفه تعايشاً وبين التسامح بوصفه قبولاً عقدياً

⁵⁹ التاريخ الطبيعي للدين، ص 67-68.

المراجع:

أولاً المراجع العربية:

1. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، الطبعة الثانية، دار الجيل، ودار الفك، بيروت، 1969-1972م
2. أبو نصر الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م.
3. نشوان بن سعيد الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق.
4. محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
5. ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م.
6. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، القاهرة، 1983م.
7. محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلامية، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
8. محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، الطبعة الثانية، دار النفائس للنشر والتوزيع، 2011م.
9. أبو الأعلى المودودي، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، الطبعة الرابعة، دار القلم، الكويت، 1980م.
10. جورج صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980م.
11. ألفرد إيبر، وتوماس بالدوين، وسمير الخليل، وكارل بوبر، التسامح بين شرق وغرب- دراسات في التعايش وقبول الآخر، الطبعة الثانية، دار الساق، 1992.
12. أحمد عبد الوهاب الشرقاوي، هبة إبراهيم النادي (إشراف)، معجم مصطلحات الأديان، مركز التاريخ العربي للنشر، مكتبة الحبر الإلكتروني، (نسخة رقمية)
13. محمد بن أعلى التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم الطبعة: الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996 م.
14. جورج صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، 1982م.
15. جون ر. هينليس، معجم الأديان -الدليل الكامل للأديان العالمية، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، 2010م
16. فراس السواح، دين الإنسان- بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2022م.
17. كارين أرمسترونغ، الله والإنسان، الطبعة الأولى، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، 1996م.
18. ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين، الطبعة الأولى، دار الفرق، دمشق، 2014م.
19. خزل الماجدي، كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدد والتوحيد، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2025م.
20. محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى- الحضارة المصرية القديمة (الجزء الثاني)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1989م.
21. إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عهد البطالمة، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1987م.
22. أحمد علي عجيب، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004م.
23. محمد إسماعيل الندوي، الهند القديمة وحضارتها ودياناتها، دار الشعب، القاهرة، 1970م.

المراجع الأجنبية:

1. Laura Nicolì, Lugubre et riant, doux et intolérant : le paganisme vu par les Lumières,
<https://doi.org/10.4000/theoremes.863>

2. UNESCO, "إعلان مبادئ بشأن التسامح" (Nov. 1995), Declaration of Principles on Tolerance 16, باريس، [Online]. Available: <https://www.unesco.org/en/legal-affairs/declaration-principles-tolerance> (Accessed: Jan. 30, 2026).
3. Jan Assmann, Monotheism and Polytheism, <https://doi.org/10.4159/9780674039186-006>
4. ESTHER EIDINOW and JULIA KINDT, ANCIENT GREEK RELIGION, Oxford University Press, 2015, P309 -310
5. Vedanta Society of Southern California, "Harmony of Religions," n.d. Online. Available: <https://vedanta.org/what-is-vedanta/harmony-of-religions/>. Accessed: Feb. 1, 2026. Vedanta Society of Southern California, "Harmony of Religions," n.d. Online. Available: <https://vedanta.org/what-is-vedanta/harmony-of-religions/>. Accessed: Feb. 1, 2026.
6. D. Basinger, "Religious Diversity (Pluralism)," The Stanford Encyclopedia of Philosophy, Summer 2025 ed., E. N. Zalta and U. Nodelman, Eds. [Online]. Available: <https://plato.stanford.edu/archives/sum2025/entries/religious-pluralism/#ReliDiveReliTole>. Accessed: Feb. 1, 2026
7. Assmann, Jan. Of God and Gods: Egypt, Israel, and the Rise of Monotheism. University of Wisconsin Press, 2008.
8. Jan Assmann, The Price of Monotheism, Stanford university press, Stanford, California, 2010
9. Maurizio Bettini, In Praise of Polytheism, university of California press, 2014